عنوان البرنامج: مبادئ التصوف وهوادي التعرف
الوحدة الثانية: مدخل لعلم التصوف (2)
الدرس الثالث: التصوف على طريقة الجنيد السالك
اسم المحاضر: الدكتور إسماعيل راضي

# التصوف على طريقة الجنيد السالك

**بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.**

يتمحور منهاج التصوف ودعوته حول التزكية والتطهير؛ وهذه العملية التربوية والتزكوية تُثمر:

1- **أخلاقاً نبوية:** تصل بصاحبها إلى التحقق الوجداني بالخُلق النبوي سلوكا وعملا وليس فقط قولا ونظرا؛ وذلك استناداً إلى من وصفه الله بقوله: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾، وقول عائشة: «كان خُلقُه القرآن» (الأدب المفرد للبخاري، ح308). فرسول الله صلى الله عليه وسلم، كما وصفه الله تعالى، متمكن منه الخلق الكريم في نفسه، متمكن منه في دعوته... ولما تحقق الصوفية بهذا الوصف، قال عنهم الشاطبي: «وبذلك سادوا غيرهم ممن لم يبلغ مبالغهم في الاتصاف بأوصاف الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه» (الموافقات، ص240).

2- **أذواقاً وِجدانية:** تصل بصاحبها إلى التلبس الوجداني بمعنى التوحيد مُراقبةً ومشاهدة وليس فقط الاكتفاء بالإشهاد القولي له؛ وذلك استناداً إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «أن تعبد الله كأنك تراه» (مسلم، ح8)، وإلى قول حارثة: «أصبحت وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا» (شعب الإيمان للبيهقي، ح10591).

التصوف إذاً في ثمراته: أخلاق وأذواق:

- فمن الصوفية من ركّز في دعوته على تبليغ التجربة من خلال القيم ومكارم الأخلاق...

ـ ومنهم من غلَب عليه تبليغ التصوف من خلال ما تثمره التجربة من أذواق (واعتمد في ذلك على لغة إشارية تحبل بالمعاني الروحية التي يرومها الصوفي ويعيشها، مع العِلم أنّ العبرة ليست بمنطوقها).

مِن ثَمّ، تبلور التصوف عند رجالاته في منهجين:

- منهجٌ رمزوا له ب «الجُنيد» (ت 297هـ)، وهو الذي عُرفت مدرسته بمدرسة الأخلاق والسلوك، دون إطلاق القول في الأذواق والحقائق والكشوفات. وقد رُمز إلى هذا المنحى كما قلت بمنهج الإمام الجنيد، لعدة اعتبارات نُلخِّصها في ما يلي:

ـ إجماع العلماء على تقدُّم الجنيد في علمي الشريعة والحقيقة، لذلك سُمي بسيد الطائفتين.

ـ انخراط جمهور العلماء والناس على اختلاف مراتبهم في التصوف على منهجه.

ـ نبذ الإغراق والتحدث في الحقائق، التي لا تُدركها العقول.

- ومنهج رمزوا له ب «البسطامي»، وهو الذي عُرفت مدرسته بالبوح بما تُثمره التجربة من فتوحات وعلوم وهبية وحقائق وشطح وإغراق.

ليس معنى هذا أن صوفية الأخلاق لم يكونوا في الذروة من المعرفة بهذه الأذواق والمعاني المُصطلح عليها بـ «الحقائق»، بل على العكس من ذلك، فإمساكهم عن النطق بهذه الأذواق إنما هو لرُسوخِهم في هذا العلم، ولغَلبة صَحْوهم على سُكرهم، وكذلك من باب سد الذرائع، وتفادي افتتان الناس.

فقد كان الجُنيد (المتوفى عام 297هـ)، يرى مخاطبة الناس على قدر عقولهم، ويرى بأن الجواب يكون على قدر السائل لا على قدر المسائل (تاج العارفين، ص: 129)، وكان يُنكر على من يُفشي الكلام في الأذواق والحقائق؛ وهو الذي أنّب الإمام الشبلي على إشاعته هذه العلوم بين العوام (الأعمال الكاملة، ص36) حيث قال له: «نحن حبَّرنا هذا العلم تحبيرا ووضعناه في السراديب، فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ». وكان يقول: «إن للعلم ثمنا فلا تعطوه حتى تأخذوا ثمنه، قيل له: وما ثمنه؟ قال: وضعه عند من يُحسن حمْلَه ولا يضيعه» (الطبقات الكبرى للشعراني، ص 124).

في هذا المعنى بوب البخاري أحد أبواب صحيحه فقال: «باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا»، ومنه قول علي ﷺ: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله» (البخاري، ح127)، وقول عبد الله بن مسعود ﷺ: «ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة» (فتح الباري).

يَظهر هذا المعنى كذلك من خلال ما وقع للإمام مالك (ترتيب المدارك، 188/1) حين سأله رجل عن علم الباطن، فغضِب، وقال له: «إن علم الباطن لا يعرفه إلا من عرف علم الظاهر، فمتى عُرف علم الظاهر وعُمل به، فتح الله عليه علم الباطن، ولا يكون ذلك إلا مع فتحِ قلبه وتنويره».

وقد أدى الكلام في «الحقائق» وفي «الشطح» إلى ردِّ كثير من الناس عن التصوف وعن قيمته التربوية والأخلاقية والإيمانية. ومن ثم، ظلت غاية التصوف الأولى، على منهج الإمام الجنيد، هي التحلي الأمثل بالأخلاق المحمدية، والتسنن الأكمل، قولا وفعلا وحالا بسيرة سيد المرسلين عليه أزكى الصلاة والتسليم... حتى قالوا: «التصوف هو الخُلُق، فمن زاد عليك في الخُلق، فقد زاد عليك في التصوف» (الرسالة القشيرية، الكتاني، ص242). وقال الجنيد: «التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني»، (تاج العارفين، ص151)، وقال القشيري: «الخُلق الحَسَن أفضل مناقب العبد، يُظهر جواهر الرجال، والإنسان مستور بخَلْقه مشهود بخُلقه»؛ (الرسالة القشيرية، ص241).

هذا المنحى الجنيدي هو الذي اختاره المغاربة في ممارستهم للتصوف (المنحى الأخلاقي السني):

وقد صرّح ابن الزيات منذ أوائل القرن السابع الهجري (617هـ) في مقدمة كتابه (التشوف) بذلك حيث قال بأنه جرّده من «الحقائق»، وأنه خبر رجالات الصلاح والولاية في عصره، ومن قبلهم، وأكد تمسكهم «بالسنة والجماعة، وطهارتهم من البدع والإحداث في الدين، والاقتفاء لآثار من مضى من السلف الصالح...». (التشوف، ص32).

وأبرز ابن قنفذ (740–810هـ)، الذي جال بالمغرب في منتصف القرن الثامن الهجري، هذه الخصوصية المغربية في منظومته حيث أكّد فيها تشبث التصوف المغربي بأخلاق القرآن والسنة والإجماع.

وجاء في معلمة المغرب (2392/7) بأن «مراعاة الشعور السني العام في المغرب كان واقعا مُتأصِّلا».

وقال علال الفاسي بأن التصوف بالمغرب كان دائما سنيا، أخلاقيا، ومُستمَدّاً من المصادر الإسلامية، وبأنه يمثل ذلك التوق الهائل للاتصال بالملإ الأعلى، وأنه منهجٌ من مناهج الإسلام وسُلّمٌ للنجاة معروفٌ ومسلوكٌ من النبي عليه السلام وصحبه. وأوضح بأن السلوك الذي اعتمده واستقر عليه عامة المغاربة منذ القرن الثالث الهجري هو تصوف الأخلاق والرقائق، ودخل في حظيرته الفقهاء والعلماء (التصوف الإسلامي بالمغرب، ص12).